

كل مفراج طيَّاش من أصحاب المصيبات الجاهلية التي فلبت على قلوبهم وأعمت أعينهم . ذلك الشيء الواحد هو أن المفاوضات ظلَّت تجري منذ بدأت إلى أن كانت سنة ١٩٣٦ ، والشعب يتبعُ المفاوضات بقابه عسى أن يرجع إليه الرجال المفاوضون بحق مصر كاملاً غير منقوصٍ ، وهو من ورائهم يدفعهم دفماً رجا، أن يتفهم ذلك فينتفع بنفهم . ولكن ... ولكن مرة أخرى وفي الثالثة كان الشعب يفعل ذلك مجتهداً ، فلوسَّات كل رجل وكل أنثى وكل طفل أيضاً : « هل ترجو من وراء هذه المفاوضات خيراً ؟ » فهو قائل لك : « يا سيدي ، بما جربنا » ثم يمضي لشأنه يائساً تكادُ دماؤه التي تجري في عروقه تبكي من الحسرات التي تقطع قلبه وتمش ضمير حياته !

هكذا كانت مصر والسودان برغم المفاوضات الدائرة ، وبرغم مطالبة الشعب مجتهداً أحياناً بهذه المفاوضات . كانت الدماء تجري في الأبدان المصرية السودانية وتُهَبِّم وتدمم ، ولكن الرجل الذي يفهم معنى هذه المهمة الخفية لم يكن موجوداً ، وهي لا تستطيع العبارة عن نَقَمها بلسان ناطقٍ مبين . وبقينا جميعاً ننظر ، لأن عبارة أمثالنا لن تؤدي إلى شيء ، إذ لم يكن لأحد يومئذٍ من قوة الاستجابة لنداء الدم المصري السوداني ، ولا من استمداد الأبدان والعقول التي تجري فيها هذه الدماء ، ما يجعل لكلمة مصر الخالدة « لا بمفاوضة إلا بعد الجلاء » صدقاً يتردُّ فيستجيب له الوادي كُله كما استجاب للفتى الأول مصطفي كامل ، وبقيت الأبدان الماقلة ( والتي هي الشعب بأقراده ) في ناحية ، والدم الذي يجري في هذه الأبدان نفسها في ناحية أخرى — وجلَّ الله بأسنا بيننا ، فكانت إرادة الله ولا رادَ لما أراد . ثم كان شيء ونحن ندرى كيف كان .

فقد سكنت زجيرة المدافع ، ومجيج القنابل النارية ، وقام رجالٌ يريدون مفاوضة بريطانيا ، ولكنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتى سموا صوت الدم المصري السوداني ينطقُ من كل ناحية « لا بمفاوضة إلا بعد الجلاء » فتمت المعجزة التي كان كل امرئ يترقبها ، وكان لمصر والسودان النصر بعد الهزيمة المنكرة الأولى ، وظهرت كلمة الحق حتى ضاراً كبقرة الناس بها هو أشدُّهم إيماناً ، وأجودهم في سبيلها بزوجه وحياته ، وطلت مصر

ولا تجد لها بياناً ، فيصوغ لها بياناً من عنده ويلقي به إلى الشعب فإذا هو يسمع كل ما في ضميره مترجماً في ألفاظ حية تتردد في أذنيه . وفَتِنَ الشعب بصدق لسانه الذي ينطقُ بأمراره التي تتحير في دمه ولا يعرف كيف يبينُ عنها ، وأسلم القيادة لرجل يهديه ويرشده ويستبر عنه ، ويعلم بشيخوخته الوقورة الساحية شباب بريطانيا الظافرة الطائشة السكرى براح النصر .

ثم كان شيء الله يعلم كيف كان ! !

فإذا هذا الشعب المأخوذ بسعد ، الفائر بالثورة في طلب حقه التهجُّم على بريطانيا العاتية ، المأمج من منبع النيل إلى مصبه يطلبُ الحرية من قيوده وآصاره فتلقاه أسنة الرماح البريطانية ويتخلف أرواحه رصاص الوحوش ذات المدينة الرقيقة منذ كان أرسطو إلى هذا اليوم ! ! إذا بهذا الشعب المنادي بالاستقلال التام يسمع دعوة إلى مفاوضة بريطانيا لا يدري أحدٌ كيف جاءت وكيف ندست إليه ، وإذا سمدُ هو المفاوض ، فتت مصر في آثار زعيمها ثقةً به وتسلية له ، ورجت لحكيمها الشيخ أن يردَّ إليها باستقلالها التام ...

كان هذا ولا يدري أحدٌ كيف كان ! !

ولكن بقيت في مصر والسودان بقية لم تزل تسمع صدق كلات الفتى الأول ، فهبت تصرُّخ في وجه الشعب الطالب بالاستقلال التام ! ! حذار حذار ، وألحت في صراخها ولكن مات صوتها في دوى الأصوات الطالبة بالاستقلال التام ! وفي موج الجماهير ، وفي أزيز الرصاص وهديره وقصفه . وأخيراً وقف رجلٌ يسخر من كلمة مصر الخالدة : « لا بمفاوضة إلا بعد الجلاء » سُخريةً لاذعة ملقفة في ثوب الدُّعابة المحببة إلى هذا الشعب منذ قديم الأزمان ، والذي يُدَاعبُ ويحبُّ الدُّعابة ولا ينساها وهو في جبل الشنفة ، أو في سياق الموت . وكانت هذه الدُّعابة أفضل من رصاص بريطانيا وحرابها ونذالها جميعاً في قتل كلمة مصر والسودان : « لا بمفاوضة إلا بعد الجلاء » ، حتى صار من يقولُ بها ممدوداً عند أصحاب المصيبات الجاهلية في عداد الهانين والموسوسين والبُلَه والملاحيس .

نعم كان ذلك ولكن لا ندري كيف كان ! !

ولكن بقي شيء واحد جهلته بريطانيا وجواسيدها ، وجهله